قَصْرُ الرَّمَادِ
الدُّكْتُورَةُ الْكَاتِبَةُ عَائِشَةُ عَبْدُ الْقَادِرِ السَّيِّدُ

الإهداء:

إلى كلّ دمعةٍ أحرقت خدود الورد بكِ، إلى كلّ دمعةٍ زلزلت أركان الجمال بعينيك البنيّتين، إلى كلّ دمعةٍ أجهشت صوتك بالبكاء العارم بالحرقة، لكِ أهدي كتاب قصر الرّماد يا من عمّرَت من رماد حياتها قصوراً، لكِ يا من حُظيَت منّي بأبهى احترامٍ وتقديرٍ، لكِ يا عائشة كل ما أكتب ولدموعكِ هذا الكتاب.

المقدّمة:

حين يصير الألم دافعاً، لم تعد الدّموع عجزاً، بل تكون القوّة الأعظم لإيقاف ثوران طوفان الحياة، وتعلّم النّهوض من ركام الرّماد والتّطلع لأعلام القصور المبنية من ذات الرّماد، فهل هناك تحدٍّ يفوق تحدّي الحياة لأجل الحياة؟!

فما بالك إن كانت هذه الحياة تتجسّد بفتاةٍ هي ذاتها روح الحياة؟!

اللّه اللّه!

دعني أفسح لقلبك أيّها القارئ تذكرة رحلةٍ تخوضها بين ثنايا كتابي الآن.

الباب الأول:

دموع الألم

أُغلقت السّتائر، وأُطفئت الأضواء، ونام الأنام،وبقيت هي وحدها دون عيونٍ تلاحقها، تخلع قناع القوّة، وترتمي إلى فراشها كمن يسقط وهو يعلم ألّا يداً تنتشله، يتساقط معها تعبها، وينزل أمامها ويحاورها بسخريّةٍ مُوجعةٍ تارةً، وبعطفٍ قاتلٍ تارةً أخرى، كيف ولا وهي أكثر من يتّصف بالقوّة وأكثر من يحمل التّعب؟!

تشاهد همومها تتثاقل أمامها، تبني لها صرحاً تمنعها به عن عيش الحياة بأقنعةٍ، تذكّرها من خلاله بأنّ الألم هو مفتاح الحياة، والدّموع هي ماء الكون، وهل يوجد كون دون ماء؟!

تبدأ بالبكاء فوق ركام ألمها وتعبها، وتنسى أنّها تخشى أن يسمع أحدٌ أنينها فتصرخ ببكائها صراخاً يهزّ أرجاء الأرض من تحتها، تبكي بحرقةِ المتألّم من اعتاد كتم ما يعانيه كي لا يخلع عنه رداء القوّة حيث لا سلاح له إيّاه، لكن في وحدته هو ربّما يكون أكثر من بكي في هذه الأرض!

تنظرُ لدموعها الّتي أحرقت وجنتيها وعينيها، وإذ بها تتغزّل باحمرار عينيها بعد البكاء، وما ذنبها إن كانت عيناها في الحزن جميلةً؟!

بل تلك هي روح الحياة بها من تتغذّى على حبّها لها حتّى وهي تصارع الموت حياةً!

تتحسّس قلبها لتتأكد إن كانت حيّةً أم أنّها تفارق الحياة، فتجد دقّات قلبها تخفق خفقاناً جنونيّاً، ففهمت حينها رسالة قلبها لها فهو يريد منها أن تدعه يستكنّ فما الخفقان له سوى ناراً تكويه، تجسّ شريانها الكعبري (Radial Artery) لتسمع ما يقوله نبضها فتجده يأنّ بحرقةٍ يخبرها كم هو لائمٌ لما أثقلته على كاهله، تنظر بمرآتها تتعجّب بتفاعل جسدها معها، رغم أنّ هذا لا يخفى عنها، فهي جزءٌ من سيمفونيّة هذا الكون، فتارةً تكون مستمعةً، وتارةً عازفةً، وكثيراً هي الكون كله!

ذنبُ تلك الفتاة أنّها خُلقت وحيدةً، كَبُرَت وحيدةً، وتجاوزت مراحل نموّها الفاصلة بحياتها وحيدةً، عاشت وحيدةً في أشدّ الأوقات الّتي يحتاج الإنسان بها إلى سنداً، عَبرت من تحت الرّكام وحدها، لم تجد يوماً نوراً يُضاء لينوّر لها عتمتها، ولم تجد مسانداً يمدّ يد العون يشاركها ثقل ما تحمله، ولم تلمح بصيص أمل ممّن حولها يخفّف عنها قسوة ما تعانيه، بل كانت وحدها، وحدها، ولا أحد بجانبها، وهل من مثلها يشتكي؟!

وربّما لأنّها لم تشتكِ يوماً لم تجد ما حدّثتك عنه، وهل يقتنعون بأنّ من مثلها يعان؟!

سرّ تلك القوّة المتمثّلة بهيئة فتاة أنّها ارتدت القوّة منذ نعومة أظفارها، لكن لا أحد يا صديقي يُولد وهو يحمل بجيناته القوّة، ولا أحد يرث القوّة من أهله، بل الحياة هي من تمنحك إيّاها، و لأكون واضحةً معك أكثر، الطّفولة هي أكثر ما يطبع عند المرء خلفيّةً عن القوّة! نعم، نعم لا تتفاجئ هذه حقيقةٌ من حقائق الطّفولة، فيا حسرةً على طفولةٍ لم تُعاش!

ويا أسفي إن كان من حُرم من طفولته هي فتاة! فتلك المصيبة مصائب!

تتابع بكائها، وبكلّ مرّة تبكي بها يبدوا أنّه بكاء مكتوم لأعوامٍ، وذاك لأنّ بكائها يحمل كبريائها مثلها تماماً، فهو لا يسمح لمخلوقٍ خُلق أن يراه، حاشا لدموعها أن تظهر، هي تعلم أنّ البكاء قوّة لا ضعف، لكنّه موقن أنّه لا لأحدٍ حقّ أن يراه، فهو يهطل في حضرتها وحدها

نعم يا عزيزي البكاء عزيزٌ عند من تعزّ عليهم نفوسهم، فهم لا يخرجونه من كينونته إلّا بمن هو مُحرمٌ عليه، وهذا هو المعنى الفعلي لقول"البكاء قوّة لا ضعف" مُتيقنة هي أنّ الألم هو الدّافع الأسمى في هذه الحياة لدفع الإنسان إلى التّغيير، إلى التّجديد، إلى النّهوض، إلى القمّة، لا شيء قادرٌ على دفع الإنسان كما يفعل الألم، فالألم هو ذاك السّرّ الكامن في حقيقة خلق الإنسان، فهو محرّكه الأسمى، وهو أكثر من يحتاجه المرء كي ينجح بقدر ما يمقته وجعاً حين

كانت تبني من كل ذرّة ألم درجة من سلّمها الّذي تصعد من خلاله إلى العلالي، كانت تبني من فتاتها حجارةً صامدةً لا تزعزعها أقوى زلازل الحياة، بل تزيدها صلابةً ودعامةً، وهكذا كبرت تلك الفتاة والألم هو المُوقد لنار العيش بها، والدّموع هي الكتف الّذي يسدل على جفنيها ألوان الحياة عقب ضبابية البكاء، فبعدها تكون الصّور أوضح والمسرح يحمل تفاصيل أكثر دقّة لا يراها إلا من رسم بريشته كل ألوان الألم والبكاء، فيا لها من رسّامةٍ فنانةٍ تجيد تزيين الدّنيّا حين تملّ الدّنيّا من ذاتها!

وتلك هي دموع الألم ما بنتها لجدران غرفتها، لتكون عماد سرّها ونجواها، وشكواها لذاتها من ذاتها، ما تعبر من خلالها قارّات حزنها و وجعها، من لم تشاركه يوماً مع إنسانٍ، فهي لم ولن تكون ضحيّةً يوماً، وتمقت كلّ من يلعب دورها، فلا للضّحايا وجود في هذا الكون المُرعب، فهي تفضّل أن تكون قاتلةً لا أن تكون ضحيّةً، لكن حقيقتها الّتي خُلقت من طين لم يخفى عنها اللّين، وذاك اللّين مُنطبعٌ في دموعها، وهل يوجد مخلوق لا يبكِ؟!

تلك القوّة كما أخبرتك لا محلّ لها في علم الوراثة، بل هي ما طبعته عليها التّجارب، ما أهداها إيّاه الخذلان، ما استسمح به الأسف لها، ما منحها إيّاها البعد، ما علّمها إيّاها الفراق، فذلك الألم أورثها القوّة، وما بقي بها من لينٍ كانت دموعها هي لغته، فإن وجدت في دموع الألم ما يجعلك تسعد بدموعك، هيّا إذاً لتدمع أعينك فرحاً، حبّاً، ليناً، وإنسانيّةً!

الباب الثّاني:

النّهوض عقب السّقوط

كعادتها تمسح دموعها بعد ساعاتٍ خشيت أن تعدّها وتلوم وقتها إن كان ضائعاً أم كان مداوياً، متجاهلةً دخولها في دوّامةٍ صعبة الحلّ كهذه، وتنهض منتشيةً من خمرة البكاء الحارق للأعصاب، المُرطّب للدّمّ! نعم إنّه هكذا كما تعنيه الكلمة، وتمسك مرآتها مُتطلّعةً بلهفةٍ إلى ملامحٍ تحتلّ المركز الأوّل في الجمال الخالص الحقيقي، ما لا ينوبه شوائبٌ، ولا يقربه تصنّعٌ، بل حقيقةٌ كاملةٌ عن معناه الوحيد الّذي لا شريك له في تفاصيله، تضفي روح الغزل لكاتبةٍ عقلانيّةٍ عاطفيّة بذكاءٍ مُبهرٍ فريدٍ وتبدأ بنثر الجمال على الجمال، ليخرج الجمال إلى الجمال

محاوطه بحدائق الورد، فيفوح عبير البنفسج من روحها الورديّة، ويعبق عطر الغاردينيا من حسّها المُرهف، ويصدح شذى الجوري من قلبها العَطر، إلى أن يستفزّ الرّبيع بأعزوفة الزّهر فيغار من زهرتها ما تفوق ازهراره بدرجاتٍ تليق بربيعها الدّائم ما لا يفوقه فصلٌ في تاريخ عمرها، رغم أنّها تحبّ الشّتاء كثيراً لا كفصلٍ مُفضّلٍ بل كحياةٍ تروي روحها بالمطر، فهي حبيبة المطر، وابنة الشّتاء، لكنّها ذاتها أمّ الرّبيع وعنوانه، فهي حبيبة الشّتاء الأولى، لكنّها أيضاً ملكة الرّبيع على مدار الأعوام!

كطفلٍ ضريرٍ تبع إحساسه راكضاً يضمّ أباه، فانصدم بمجافاته! هكذا هي نقطة البداية للمنطقة الحارقة بعمرك، من ظننت نفسك تشافيت من خذلانها بمرور السّنين، لكنّه ألمٌ جديدٌ يعيدُك لها، وهل هناك أقسى من تفتّت الفتات؟!

وماذا ستفعل هي؟! أتبقى تُصدم من ركلات كرات الخذلان اللّاذعة؟! أتبقى مستلقيةً طريحة ألم مزّقها قبل أعوام وعاد ينكس؟! أم تنهض داعسةً إيّاه بقدم لبوةٍ لا ترحم؟!

وهل مثلك يسأل عن قدرتها في النّهوض؟! أنسيتِ أنّ تلك من اجتازت أياماً بثقل الجبال وحدها، دون أن تحتاج أحدٌ فقط ليذكّرها كم هي قويّة! ولا ليساندها!

لبوةٌ هي يا صديقي، واللّبوة لا تكفّ عن المواجهة، عن الحرب، بل الفوز دائماً ومراراً، وإن كلّفها ذلك قتل الأسد وسقية الحيوانات من دمه!

أجل هي لا يعنيها الأسد البتّة، بل كلّ ما يعنيها هو الانتصار، ولا حلّاً آخر سواه!

النّهوض عقب السّقوط هو أكثر ما تبدع به تلك الفتاة، لكن قبل أن أحدّثك عنه، دعني أناقشك بشيءٍ ربما يخفّف عنّي ثقلي، وعنك ما تشعر به.

الماض لا يخرج ظلّه من واقع الحاضر، ويتعدّى على المستقبل إن كنت خرجت منه متناسياً، لا ناسياً، معتقداً ذاتك متشافياً، لكنّه الشّفاء لم يمسّك، وتبقى عقدتك هذه غير ظاهرة لك، كونك زعمت بالعبور منتصراً، لكنّها مواقف الحياة كفيلة أن تعيدك لها بين كلّ ألمٍ وألمٍ، وسط الدّموع، وبين الضّحكات، وعند التّعرض الخذلان يدقّ أبوابك خذلانك القديم الأكبر، حينها فقط تشعر أنّك ما زلت عالقاً في ذاك الألم الماض وأنّه لا يُقارن بما تعانيه الآن

وفي وقتها إن كنت تقوى على
مواجهة نفسك ستتأكدّ أنّ التّشافي
لم ينل نصيبه منك، لأنك تجاوزت
واقفاً، قويّاً، صامتاً، لم تناقش، لم
تفهم، لم تشرح، لم تبرّر، لم تصرخ، لم
تضرب، لم ولم ولم.... أنت فقط تابعت
فلا خيار كان لديك إلّاه، وهذه أكبر زلّةً
ترتكبها في حقّك، كيف تنسى أنّ
عيش الشّعور أيّاً كان هو واجبٌ؟!
عقلك البشريّ لن يدخلك في راحةٍ إن
درّبته على موت الحسّ بالوجع
والانهيار، لن يدعمك كثيراً إن روّضته
على الصّمت والتّجاهل

فعندما تكون التّجربة الأقسى من
نوعها في حياتك لا يجدي معها
الصّمت والتّجاهل وتركها للأيّام
حيث تدور وتُقلب الطّاولة، بل
الشّيء الوحيد الّذي يطفئ نارك
الملتهبة في صدرك من جرحٍ نازٍّ مرّ
عليه أعوامٌ وأعوامٌ وما زالت ذكراه
تؤلمك، هو الانتقام!
أجل يا عزيزي لا شيء سوى
الانتقام يُخمد نيراناً تلتهب لصدرك
ولا تعرف لخمدها طريقاً، انتقم
ممّن أوجعك وجعاً حُمل بك لأعوامٍ،
انتقم ممّن ترك فيك ندباً عجز
الزّمان عن ترميمها

انتقم ممّن بلغى أذاه لك مكر النّفس الخبيثة الآمّارة بالسّوء، انتقم ممّن جعلك تكره جنساً كاملاً كونه ينتمي له!

انتقم ممّن أدخلك بدائرة التّساؤلات المميتة، وجعلك ضحيّةً للنّدم الكاوي لشراييناك، يحرمُها العيش، يدنّس صور الحياة بعينيك، يرهنك للانتحار، يتركك لفقدان الثّقة المُولع لطرقك بحياتك كلّها، للدّموع الّتي ألهبَت أجفانك حتّى صرخت عيناك منك تطلب الرّحمة، يصدح بصرخاتك من تزعزع لصدى أنينها عماد الكون، من أبكَت وأحرقت كلّ من لمح الخذلان بآهاتها، من زلزلت أرجاء الثّقة عند من هم أهل لها!

كيف ولا تنتقم ممّن تجاوز بأذيّته لك العجائب السّبع لتكون ندالته هي الثّامنة؟!

انتقم وأذقْه من ذات العُلقم ما سقاك إيّاه، كن له كابوساً يخشاه ليلاً ونهاراً، كن له محطة الرّعب الأقسى من تضرب جذور جبروته حتّى تقتلعها، كن له ناراً تكويه وتستلّذ برؤيته ينزّ قرفاً، فلا هناك أروع من انقلاب الأدوار حين تمنحنا الحياة الحقّ في ختام المسرحيّة!

اجعله يتوسّل كي يُخفّف عذابه، دعه يبكي حرقةً إلى أن تجفّ دموعه، دعه يصرخ حتّى تتلاشى نبراته في هباءٍ لا صدى للظّالم بها، دعه يترجّى كي يُكسر كبريائه الخادع، بل لتتحطّم أسطورة الجبروت المُختلقة تلك، اجعله يعترف بحماقته، بنجسه، بخساسته ويعترف أيضاً أنّه خسر وأخيراً، بل تفتّت إرباً لا يشتهي كلبٌ مُلهثٌ أن يقضمها!

وصار قمامةً تُحرق وتختفي روائح نجاستها في الفضاء الشّاسع وكأنّها لم تكن!

نعم أيّها القارئ إن صادفت بحياتك خذلاناً كالّذي أحدّثك عنه فهذا هو الانتقام المُفضّل له!

الباب الثّالث:

فرّق بينهم

إن فهمت ما أعنيه فأنت لم
تختلف معي كثيراً، لكن إن لم
تفهمني ستخالفني بشدّةٍ!
ربّما تسأل نفسك الآن ماذا عن
العدالة الإلهيّة؟!
ماذا عن دور الدّنيّا في إعادة
الحقّ لصاحبه؟!
ماذا عن الزّمان حينما تُقلب
أدواره؟!
نعم، نعم أنا لم ولن أنسى هذا،
ولن أطلب منك أن تستهزأ به
أبداً، فهو حقيقة الوجود

والمداوي لكلّ الآهات المنسيّة

في ثقوب العمر، لكن يا عزيزي إن

كان ما تعانيه من ظلمٍ وألمٍ و وجعٍ

أكبر من أن يُرتمى لملعب الدّنيّا

وانتظار تسجيل الهدف في

مرماك، لا يجدي لك ما ذكرناه

عالياً، بل سيكون قاتلاً صامتاً لك،

وعدوّاً يرافق ظلّك صحواً ونوماً،

لذلك لا خلاص من ذاك الشّرّ الوغد،

صاحب السّمّ الخدّاع سوى أن

تسجّل أهدافك في مرماك وحدك،

حارقاً كلّ من وما اعترضك!

تعلّم أن تفرّق بين ما يؤلمك، وبين ما يلهبك، فالألم هو مُتطلّب للحياة، لكن اللّهب هو قاتلاً لها! الحزن هو خليل الفرح، بينما تآكل الرّوح هو جريمةٌ لا يغتفر عنها، البكاء هو غذاء العين وتجدّدها، لكن الغرق قهراً هو إهانة لمكارم العين والدّموع، وقس على ذلك كلّ ما تعانيه كمخلوقٍ طبيعي، وكمواردٍ للعيش، وبين ما يصيبك من مكاره تحوّلك من إنسانٍ إلى مخلوقٍ يشبه كلّ شيءٍ سوى البشر!

حين تتعلّم أن تكون أنت الحاكم على قبضة العدل في محكمة حياتك ستروّضك الحياة على صون ذاتك، حماية حقوقك، تقديس مسؤوليّاتك، تحمّل واجباتك، وحفظ حدود الكون والكائنات، وعندما تكون أنت محطّ للتّوازن في كفتيّ زمانك، ستبدع في مهارةٍ ثمينةٍ وهي كيف تختار الوقت الأصح لترجيح إحدى الكفتين على الأخرى، سواء قويت على تحقيق الموازنة أو لا ترغب بذلك!

لكن لا تنسى أن التّوازن مطلبٌ لا استغناء عنه، فهو كالدّرع حين تضربك الألوان بموجاتها بكافة طرق حياتك، فأنا شخصيّاً ما قابلتُ إلى الآن شخصاً واحداً فقط متوازناً!

يا للهول! ماذا تنتظر؟! هل بقي بعمرك بقدر ما مضى؟!

سارع إلى التقاط سهم التّوازن لترميه بهدفك وتصيب، كفاك رمياً لمشاكلك النّفسيّة على أضلعك وشراييناك، كفاك دفن مشاعرك حتّى تموت خنقاً بسببك وتخنقك بها، كفاك تجاوزاً للماض دون أن تبرم معه صفقة الصّلح

كفاك هراءً نحو المستقبل

دون أن تعيش الحاضر، كفاك

وكفاك ظلماً لذاتك، فواللّه

تلك الحياة أقصر من أن تُهدر

سدًى، وأنت أثق أنّه يليق بك

أن تُكرّم ذاتك وتحيا متوازناً،

فما رأيتُ أسعد من شخصٍ

متوازنٍ، متّزنٍ، مُعافى،

مُشافى، مُتصالحٍ، راضٍ، قنوعٍ،

مُبتسماً، مُحبّاً للحياة، والأهمّ

أنّه متفائلٌ!

خلاصة"فرّق بينهم"هو
محاولتك تغيير حكمك على
الأشياء، وكيفيّة التّصرف
معها، والتّعامل مع الأمور
المختلفة كما يجب، أي كما
يجعلك مرتاحاً، سعيداً،
متوازناً، ومتّزناً، ترفّع عن
السّطحيّة يا عزيزي، لكن إيّاك
والغوص في القاع إن لم تكن
الصّورة الخفيّة قد تنال
إعجابك!

بين كلّ أمرٍ ونقيضه هناك خيطاً رفيعاً كالأنبوب الشّعري، إن تمكّنت من فهم لغزه، والتّعامل مع حلوله ستحيا الحياة كما لم تعشها من قبل!

إنّه بهذه الأهميّة تماماً، فأنا وأنت وهي وهو وكلّ من حولنا وما حولنا قائمٌ على التّناقض، فأنت مهمّتك كي تحيا مع كلّ الّذي عدّدته أن تربّي فطنتك الفطريّة على تحسّس الخير والجمال بكلّ ما حولك والنّفور من الشّرّ والبعد عن القباحة بكلّ قوّتك.

الباب الرّابع:

تنفّس فقط

ما الّذي تمرّ به عندما تخرج من صدمةٍ، أو تترك علاقة أحببتها، أو تُطعن ممّن ظننتك صديقك وقريبك، أو تفشل فيما خطّطت له؟!

ماذا يا ترى؟!

دعني أجيب عنك بما تسدله عليّ الطّبيعة البشريّة، ستنغلق على ذاتك أولاً، تبتعد عن الجميع، وتكرههم باللّاشعور، وربّما ستمقت ظلّك أيضاً، تبدأ هالات الصّدمة تضرب عقلك دون رحمةٍ، يغيهب الضّباب على عالمك، فترى الكون أسوداً حالكاً

وتمرّ الأيّام والأسابيع، وربّما الأشهر والسّنوات وأنت هكذا طريح ما فقدته، ورأيته خسارةً و ضرباً مُبرحاً، لكن ما الفرق بين البشر إذاً؟! منهم من يتجاوز بساعاتٍ أو أيّامٍ، ومنهم من يُدمّر ذاته أشهراً وسنواتٍ، وذلك هو الفارق، فأنت أيّ منهم؟!

قبل أن ندخل معاً في إطار حلول هذه المعضلة، لا تدع عقارب العمر تفوتك وأنت تنتظرها، فإن لم تلاحق الحياة بنفسك، صدّقني هي لا تلاحقك!

تفكّر الآن ما هو أفضل انتقامٍ لما جعلك في حالة الظّلام هذا، أليس كذلك؟!

الانتقام الأضخم من نوعه لكلّ من وما كان عابراً في حياتك هو اللّاشيء!

نعم يا عزيزي، لا تهدر طاقة روحك وقلبك ودماغك بالانتقام ممّن مرّ ورحل بعمرك دون آثراً باق لا يزول.....لا يجدي العيش لك إن حزنت إن لم تأخذ ثأرك من كلّ ما أبكاك، فهذه اسمها دنيّا، وسترى بها أشخاصاً لا متناهية، وسيعبر منهم طريقك وسيؤلمك، لكن أنت ليس عليك ملاحقته لآخذ ثأرك منه، بل كلّ ما عليك فعله هو إعادته غريباً كما كان، وكأنّك لم تره أو تكلّمه يوماً ما، وتنسى ما كان اسمه، وصدّقني ذاك هو العقاب الأبهى، لعبوره المسيء لمشاعرك.

اخرج وتنفّس من جديدٍ، وإيّاك أن تنسى الحكمة الخفيّة في كلّ مجريات حياتك، فكلّ ما تعرفه في طريقك هو كان ضروريّاً لك لا رفاهيّةً، أجل أنت تحتاج إلى كلّ ما حصل معك كي تثقل شخصيّتك بالتّجارب، كي تنضج، كي تكبر، كي يصفى تفكيرك، كي تتضّح صورك، كي تفهم الحياة، وتكتشف طبيعة البشر، وتآخد دروساً ثمينةً ستكون درعك في ساحات حروبك القادمة، نعم أنت بأمسّ الحاجة لما صار معك، فلولاه لما صرت ما أنت عليه الآن من تكوينٍ فكريّ وعقليّ وجسدي.

عليك أن ترى ذاتك من مرآتك تلك الّتي شهدت على دموعك بكلّ مرّة فقدت بها أمراً، عليك أن تبحث عنك بك، يجب أن تفهم ذاتك من خلال ثقوب الألم النّازفة بك، عليك أن تداوي تلك الجروح بك بدوائك الفريد ما خُلق لكَ، بل ما خُلق معك!

تعافى وخذ وقتك الّذي يريحك، طوّر ذاتك، أحبب نفسك، وثق بذاتك، وابنِ لك حياة لست مديناً بها لأحدٍ، جدّد طاقاتك، وغذّي حبّ الحياة بك، واسقِ ورود الأحلام داخلك، واسعَ واسعَ واسعَ بكلّ ما تملك من إيمانٌ بداخلك بربّ الكون ومالكه

جدّد عقدك مع الكون، وضع الحُبّ أول بنوده، حبّك لخالقك، حبّك لدينك، حبّك لأهلك، لذويك، لأصدقائك، لحياتك، لأهدافك، لما تريد تركه في هذا الكون قبل مغادرته، لكلّ نفسٍ يخرج منك، لشريك حياتك حينما تلتقيه ويكون الختام هو المسك فعلاً.

تنفّس وتمسّك بأنفاس الحياة كي تتمسّك هي بك، فما اكتشفته يا صديقي أنّ الحياة لا تحبّ إلّا من يحبّها، تناغم مع الكون من حولك، واستمتع به وكن عازفاً ماهراً، ومستمعاً يقظاً، حبّ الكون وستجد الكون يضفي عليك الحبّ من حيث تعلم ولا تعلم.

الباب الخامس:

عش مجدّداً

احتسي قهوتك، وخذ نفساً عميقاً، ومارس عبادة التّأمّل، واستمتع بإبداع الخالق في خلقه لكونه، سبّحه على إتقانه، واحمده كونك خلقك، ويمتّعك بجمال الطّبيعة، انظر إلى السّماء الصّافية حيث الدّعوات ترنو وتسكن، وانظر إلى الغيم ما يوعدك بالهدوء، يرويك بالمطر، بل يحييك، وهل حياة بغير المطر تكون حياة؟!

ارقص تحت قطراتها، وغنِّ وامنح أمنياتك للمطر، وانتظر الإجابة بوقتها الموعود، وجدّد طاقتك مع ذاتك بكل إحياء يرسله اللّه لك بالهطل.

راقب النّجوم والقمر وجرّب أن تعدّ الكواكب والمجرّات، تخيّل أيامك القادمة بكبر المجموعة الفلكيّة، ولا تنسى حظّ الشّمس ومجموعتها من النّور، تدفّئ بنورها وكن مثله يحرق ما يعترض طريقه، واجعل نورك بقلبك مثلها لا يبهت ولا ينطفئ، بل يخيف العالم في أقسى ظهورٍ له حين تقسو عليه الدّنيّا وتجعله في كسوفٍ!

تأمّل القمر ما يشبه ملامحك، وارسم على حوافه أحلاماً تعيش على آمالها أجيالٌ، وكن جميلاً مثله بكافة حالاتك وإيّاك أن تدع قبح العالم يمسّك، غذّي روحك وارو دمك، واسقِ أوردتك حبّاً للكون ولعجائبه، وكن أنت أحد أعلامه المنيرة، من توقظ الدّنيّا على الحياة، وعش ثمّ عش إلى أن يفنى العيش ولا تفنى روح الحياة بك!

جميلٌ هو الكون حينما تنظر له بعين الحبّ، عندما تصالحه بقلبٍ راضٍ، بعقلٍ صافٍ، بروح مألوفةٍ، بعينين يتلوّنان بالحياة، بشفاهٍ تنطق أملاً، بيدين يلمسان الجرح فيشفياه، ورائعٌ هو الوجود عندما تتقن فنّ الرّقص على مفترقات طرقه، فتودّع بحبٍّ وتستقبل بحبٍّ، وتنتظر بحبٍّ، ولا تراه سوى بعين الحُبّ، لذلك اسعَ كي تعيش كي يتمسّك بك هو، ويرافقك وقته لا يسابقك!

الباب السّادس:

استراحة محارب

وجدتني فتاة تركتها الحياة في ساحة المعركة وحدها، فصارت مقاتلةٌ في جيشٍ، هي قائدته، وهي كلّ جنوده، لا قوّةٌ تعينني سوى إيماني باللّه القابع في أيسر صدري، حيث لا شدّة تزعزه، ورثت من ديني القوّة، ورثت كرامة المرأة، وحملت قدرها من وهبني إيّاه ديني، وصرت مباسلةً في جيشي، أتوكّأ على ربّي، وبثقتي به أخوض معاركاً، ولا أخشى الخسارة، أخوض الحروب وحدي، وأقاتل ما يتّصدّى لي، وأهاجم عقباتي وحدي، ما وجدتُ يوماً ظلّاً يحميني، أو يداً تربت على كتفيّ، أو حصناً يضمّ خوفي، أو عناقاً يهدّئ براكيني، كنتُ وحدي، وحدي، وحدي، وحقّ من جعل النّفس من النّفس كنت وحدي

وحدي أقاتل، وحدي أحارب، وحدي أبكي، وحدي أنزف، وحدي أصرخ، وحدي أتمزّق، وحدي أتلاشى، وحدي أذوب في ألمي، وحدي أضيع في جروحي، وحدي أغيب مع أثقال خذلاني، وحدي أواجه نفسي، وحدي أسمع أسئلتي، وحدي أجيبني، وحدي أهدّأ منّي، وحدي أربتُ على كتفيّ، وحدي أشدّ على يديّ، وحدي أمسح دموعي، وحدي أضمّني، وحدي أعانقني، وحدي أواجه ذاتي وأخرج منها منتصرة، وحدي أنا وظلّي خرجنا من معاركنا مكلّلين بالنّصر، رفعت راية الفوز لي وحدي، وصار النّجاح شعاري مع ذاتي، بقوّتي خضت معارك الحياة خارجةً منها بدمائي الشّاهدة على انتصاراتي، وتفوّقي على تحدّيات العمر ما أثقل كاهليّ لأعوامٍ مديدةٍ، وماذا بعد جلّ هذه الحروب والمعارك يا أنا؟! أنّه وقت استراحة المحاربة أليس كذلك؟!

أجل جاء الوقت كي أستريح، كي أتربّعُ على عرش انتصاري، وأضع تاج الفوز على رأسي، وريشة العزّة ترفرف فوق رأسي، ولآلئ الشّموخ تلمع بي، وزمرّد الكبرياء يحطّم بنوره كلّ من أراد يوماً أن يحني لي رأساً وفشل في ذلك، وحتماً سيظلّ هذا حلمٌ عاجزٌ عن التّحقيق لم تمنّى أن ينال منّي وفشل، فهذا ما عاهدت به نفسي وأنا أصون العهد حتّى أموت، فأنت يا من كنت يوماً خذلاني،اجلس وشاهد تلك اللّوحة الفنيّة ما تظهر لك وللعالم أجمع كي أحرق أعصابك قليلاً!

الآن أنا المُنتصرة، أنا الفائزة، أنا النّاجحة، أنا كلّ ما يليق بالأنا، وأنتم يا من كنتم الدّافع الأكبر كي أصير أنا لكم منّي خالص الوفاء مع الكره!

الوقت الآن هو وقتي، والزّمان زماني، ودنيتي كلّها رهن إشارة واحدة منّي فقط، أنا من تخلخل شعاع الشّمس من فراغات أصابعها مُتحديّاً بأحلامها العالم بأسره، وهل حلم دون ألوانها يُرسم؟!

بل هل من حياة وأحلام دونها؟!

هي كلّ ما بالحياة من حياةٍ، ومن نورها يستمد الكوكب طريقه، صان اللّه لها درّتها، ودامت لؤلؤة نفسية حتّى يخلص العالم ولا يخلص ذكراها.

حان الوقت يا حبيبتي كي تستريحين أيّتها المحاربة العظيمة، المقاتلة الشّجاعة، اللّبوة الشّرسة، صاحبة الفطنة والذّكاء، منبع الجمال والفتنة، ارخِ قبضتك من الأشياء، ودعيها تسير لك كما تتمنّي، اتركي التّيار يعبر حدودك واستمتعي بموجاته، تأمّلي قدرك مُمتنّة لمدبّره، استقبلي نصيبك راضيةً هادئةً، رحّبي بطرقك الجديدة بحضن الحبّ، وغنّي لأصوات الحياة الّتي تناديكِ، وصفّقي للامتحانات المحضّرة لكِ، واعزفي لأمانيك القادمة، وارقصي مع ألحان الأنغام المُخبّئة، كوني متفرّجةً هذه المرّة في مسرح الحياة لا من تلعب الدّور باحترافٍ، بل تشاهد بيقظةٍ احترافيّةٍ، فجميلة هي الأدوار عندما تُقلب، أليس كذلك يا أجمل دور في عمري؟!

استراحة المحاربة هي مطلبٌ يا روح العمر، وليست كرماً منك!

أعلمُ أنّك معجونةً مرنةً من القوّة، لكن هذه القوّة تحتاج ماءً يرويها، ولا ماء يسقيها سوى راحة روحك، راحة قلبك، راحة دماغك، راحة كيانك، راحة عمرك ودنياك، وهل للمؤمن راحة في هذه الدّنيّا؟!

الإيمان غير المحدود هو الرّاحة عينها، حين تنظرين إلى الوجود بعين حبّك للّه لن تهابي شيئاً، ستعلمين أنّك في حفظه، في رعايته، في لطفه، في أمانته، في ودائعه، فلماذا لا ترتاحين إذاً وأنت في كنف أمانه؟!

دعي أمرك لمن هو أرحم بك من والدك الّذي خُلقت من صلبه، من أمّك الّتي حملتكِ في رحمها، أنتِ في أمانة من لا تضيع عنده الودائع، فعيشي عمرك هذا مطمئنة، آمنة، سعيدة، منعّمة، ولا تدعين خبث العالم يلوّث صفائك يا أنقى من خلقها ربّي.

الباب السّابع:

تملكُ اليوم فقط

تهلُّ عليّ الحنيّة ويأتي على بالي كوبُ شايٍ،
مع شريحة نعناعٍ، وقطعة ليمونٍ، وأجدني
أحتسيه ومدارات الفكر تدور حول لونه،
يتنافسان في الخمرة، في قدرتهما على
سقيتي الحنيّة، أنسيتَ أنّ أفكار المرء تُؤخذ
منه؟!
تسرق من طباعه، ترث صفاته، تكون كدماغه،
تلبّي قلبه، تستمع لروحه، فكم حنونة أفكار
تلك الفتاة البريئة، ذات أثر الفراشة؟!
أجل هي فراشةٌ تتركُ أثرها في جوف كلّ
شيءٍ تعتنقه أو تهجره، حين تمرّ على
الأشياء ما أفلتت يديها منها تجدها متحفاً
فنيّاً، وذلك لأنّ رقّة روحها طُبع عليها، لأنّ
ختماً من مشاعرها زارها، لأنّ جزءًا صغيراً
منها بقي خالداً بها، أرأيت ذلك الجزء
الصّغير؟!
هو لوحةٌ فنيّةٌ مُعلّقةً على حائطٍ مُتقشّعٍ!

هذا هو أثرها ما لا يمحيه زمنٌ أو أشخاصّ كثر.

تلك الفراشة من تحتسي حنيّتها في كوب الشّاي، تأتي بورقةٍ وقلمٍ وتكتب ما تملكه، فتجد أنّ أثمن ممتلكاتها هو يومها!

أجل يا عزيزي أنت أغلى ما تملكه هو اليوم الّذي تعيش فيه، فماذا عن ماضٍ لا يعود؟!

أو عن غدٍ ربّما لا يأتي؟!

لذلك كن متيقناً مثلي كونه لا أثمن لديك من يومك، من حاضرك، من واقعك، من فرصتك للحياة بيومٍ جديدٍ، من أنفاسك ما تتنفّسها الآن، من فرصتك الذّهبيّة بساعات أخر لك في الحياة هذه ربّما أنت تهدرها الآن؟!

أخبرني ما الّذي يجعلك تغفل عن نِعَمٍ عظيمةٍ كتلك؟!

إنسانٌ أنت، تمشي وتجلس، تركض وتلهو، تأكل وتشرب، تنام وتستيقظ، تتنزّه وتسامر، تضحك وتبكي، تفرح وتحزن، تحبّ وتكره، وتعيش وتظنّك لست بحيّ؟!

كيف تعمي نظرك عن تلك النّعم كيف؟!

أين حمدك أيّها العبد؟!

أين هو شكرك؟!

أين هو امتنانك لخالق الكون وخالقك؟!

ركزّ معي قليلاً، ودع ما أقوله لك يسير طريقه إلى تلافيفك، يروي إقفار دماغك، ويصلح توصيلاته العصبيّة، أنت تملك حاضرك فقط، وهذا يعني أنّ الحزن على الماض سيفتّتك دون أدنى رحمةٍ، وهذا ما تستحقّه حينما تندم على ماض ذهب ولم يعد، وهذا يعني أنّك أيضاً ترهق نفسك بالتّفكير بالغد الّذي قد لا يكون لك به ثانيةً واحدةً!

فلماذا إذا تستمرُ بإجهاد نفسك بما يقتلك صمتاً، وتتناسى أن تعيش ما تعيشه بفرحٍ ونعمةٍ؟!

عش يومك فقط، انظر له كهديةٍ من الحياة كي تحبّ أن تحياها وتحبّها، انظر له كفرصةٍ من خالق الكون منحك إيّاها لتعمل كي تكون خليفته في أرضه، كحبّ الكون لك كي تغيّر به، كرفض الموت لك بالوقت الحالي فحتّى هو لا يريدك أن ترحل إليه الآن، كعقد صلح مع العيش كي تكون أنت أسعد من به، كاتّفاقيّة تعافٍ اتفقت أنت والأيّام عليها معاً، كوعود الأمل لك ما تنتظر عزيمتك لها، كأغنيات الضّحكات ما تفتقد لقهقهاتك النّابعة من صميم قلبك، كشمسٍ أبَت أن تشرق دون نورك، كقمرٍ عزّ عليه جماله إن لم تكن أنت ناظره، كنجمٍ رفض اللّمعان إن خسر بريقك، كنسمةٍ أقسمت ألّا تبرد هبّات الصّيف إن لم تكن أنت صيفها، فماذا تريد أكثر من ذلك يا صديقي؟!

استغلّ نعمة وجودك الآن بين الأحياء، واحمد اللّه كونه لم يجعلك في عدّاد الموتى بعد، بل ما زال يمنحك العيش، فعش، وعش، ثمّ عش، إلى أن يفنى العيش، كن ذكيّاً في معاملات الحياة، وانظر لها بعين الحُبّ، بعهد الصّداقة، بوفاء الأخوّة، بصون المحبّة، تنفّس بسعادةٍ، وتأمّل مباهج الطّبيعة بنشوةٍ، واجعل كلّ دقائق ساعات عمرك تنبض غبطةً، هدوءاً، استقراراً، توازناً، أملاً وشجاعةً، و إيّاك والوقوع بفخ الحسرة على ما فات، والخوف ممّا هو قادم، كلّ ما عليك أن تحيا الآن فقط، زاهداً فيما سيأتي، ناسياً ما قد مضى، سعيداً بما يحصل، ساعياً للنّجاح، راكضاً نحو السّعادة، معتنقاً الرّضا، مرتدياً القناعة، متزيّناً بالتّفرد، متجمّلاً بالتّميّز، حاملاً شعلة الحياة بين ضلوعك، منيراً كفتنة القمر، متوهّجاً كلهيب الشّمس، نعم كن شعلة الحياة في حياتك، فصدّقني الحياة باتت تفتقد لمن يحياها، فساعدني وساعد ذاتك لنكون نحن أهلها!

الباب الثّامن:

سرّ الحياة

سرُّ الحياة هو عيناك!

قل لي كيف ترى الحياة بعينيك أقل لك من أنت، أخبرني ما ترى عيناك، فأخبرك عن سرّ الحياة،

فما الحياة سوى صوراً وألواناً، وما سرّها سوى نظر عينيك لها، وقبل أن نخوض في بحور أسرارها أودّ أن أذكّرك أنّك تملك أجنحة في روحك، والسّماء ليست ملكاً لأحدٍ، فما رأيك أن نحلّق معاً؟!

واحدٌ من أكبر اسرار الحياة هو التّحليق، أن تحلّق دون سفرٍ، دون فيزا، دون جوازٍ، دون تأشيرة دخول بلدٍ جديدٍ، أن تكون عابراً للقارات والحدود بينما أنت جالس هنا مكانك!

سرّها أن تجول العالم بفكرك، بشعورك، بإحساسك، بمنطقك، أن تعيش ما تتمناه وأنت فقط مغمض العينين، أن تكون مرناً في التّخيّل، قادراً على الوصول إلى ذلك الشّعور بك، أن تذوق حلاوة العالم الآخر وأنت تسافر به على مراكب البلدان والشّعوب، أن تكون مدركاً لما يجري في الدول الأخرى، حيث الوجه الآخر للعالم، أن تصبح خارج حدود البشر وتصنع لك معجزاتك وأنت فقط ساكناً!

أتعرف لماذا أسدلت عليك هذا السّرّ؟!

لأنّه مرتبطٌ بسرّ آخرٍ وهو أنّ كلّ ما بالدّنيّا قائمٌ على الشّعور، فأنت تسعى ما تسعى له فقط كي تشعر الشّعور الّذي تريده من ذاك الأمر، فمثلاً أنت تسعى كي تتعلّم وتجتهد وتنجح وذاك ربّما ليس لأنّك تحبّ الدّراسة، بل لأنّك تحبّ شعور الاحترام الّذي يمنحه النّاس لك إن كنت متعلّماً على وجه الخصوص، تحبّ ذاك الشّعور الّذي يجعلك ترى نفسك مُثقّفاً، أعلى قدراً من غيرك، ومثالاً آخراً، أنت تعمل بالتّجارة وتسافر وتراهن على حياتك ربّمّا وذلك كلّه كي تصبح صاحب مالاً، وذاك فقط لأنّك تحبّ شعور امتلاك المال، تحبّ تلك الهيبة الّتي ينظر لك النّاس بها إن كنت صاحب مالٍ، تحبّ أن شعور الحكم والسّيادة ما يمنحك إيّاه مالك، وقس على ذلك كلّ شيءٍ في الحياة، أفهمت الآن أنّ الدّنيّا قائمة على المشاعر فقط؟!

فماذا لو كنت أنت نبع الشّعور الّذي لا ينبض؟! كيف ستكون حياتك إذاً؟!

أتقوى على تخيّل جمالها حينها؟!

أولم نتكلّم عن التّخيّل قبل قليلٍ.... فلماذا أنت صامتٌ؟!

أسرار الحياة كثيرةٌ جدّاً، ولا يسعفني الوقت أن أخبرك عمّا عرفت منها في بابٍ واحدٍ من أبواب كتابي، لكن أعدك أيّها القارئ أن أكتب كتاباً خاصّاً بها، فأنا ما زلتُ أعيش وهذا يعني أنّه ما زال بأمكاني التّعلم والتّعلم عن أسرار الحياة، فهي في كلّ يومٍ تُخرج لي سرّاً جديداً، لكن دعنا نتفّق أن سرّها الأسمى، يبدأ من جوهرها ألا وهو أنت؟!

أنت يا جوهر الحياة، حبّ الحياة، وسافر في رحلاتها بروح الحُبّ، واحمد واشكر اللّه لأنّه جعلك من أهلها، من زائريها، من سوّاحها، فعش رحلتك كما تريد فما خُلق عائق إلى الآن يقف في وجه إرادة الإنسان، إيّاك أن تنسى هذا!

الباب التّاسع:

لا بدّ

فتاةٌ تتزيّن بطاقة الأنوثة الرّهيبة، مليئة بذاتها، تحبّ الحياة، ضحكتها لا تفارقها، تبتسم طيلة السّاعات، تغنّي وترقص وكلّ تسالي العمر محفورة في روحها، طفلةٌ هي ببرائتها، أنثى ناضجة بعقلها، شابّة فاتنة في جمالها، أمٌّ في طبعها لكلّ طفلٍ يمسّ قلبها، محبّةً للكون والكون محبّ لها، لكن لا بدّ أن تمرّ بساعات بهتانٍ ربّما تكون بسببٍ أو بلا سببٍ، فهي إنسانة وهذا ما تفرضه طبيعتها، الإنسان يمرّ خلال يومه بدورات مختلفة من الهرمونات والنّواقل العصبيّة، والإفرازات العديدة، فهو كلّه جملة متكاملة لا تجزّؤ لها، وهذا ما يفسّر باختصارٍ و بشكلٍ علميٍّ تلك التّقلبات الحاصلة في النّهار الواحد، ولنتكلّم الآن بشكلٍ حياتيٍّ، تكون بمزاجٍ جيّدٍ، تضحك وتتكلّم، تأكل وتهنأ، تناقش وتحدّث، وفجأة تعتريك غصّةً تسدّ حنجرتك، تخنق عليك صدرك، تشدّ على ضلوعك، تلهب قلبك، وربّما تصل بك إلى تمنّي الاختفاء أو الموت!

فلماذا؟!

إن كان لها سبباً بعينه فلا بدّ من تفاعلك مع ما يحصل لك أيّاً كان، لكن إن لم يُعرف السبب ذاته، فلا بدّ أيضاً أنّ هناك سببٌ في داخلك، وسط أعماقك، بدماغك، يحتلّ أفكارك، إمّا هو كتمانٌ يأنّ بين الحين والآخر، كتمانٌ قررت ذلك اليوم أن تدفن شعورك بدلاً من عيشه، قررت التّجاوز دون التعافي، قررت ارتداء القناع بدلاً من مواجهة الحقيقة، فبقي ذلك الكتمان مدفوناً بك، لم يُعالج، ولم يُشفى، ولم يُطفئ، بل صامتاً يأنّ في كلّ مرّةٍ يزورك حزنٌ، أو تمرّ بضعفٍ، أو تعيش ذات الشّعور!

وإمّا هو شعور يأسٍ من الواقع المرير، وهل ييأس من هو يضجّ أملاً؟!

أجل، ذاك النّابض بالأمل يكون أقرب إلى الرّماد المُحترق حين تسيطر عليه هذه النّوبة المفاجئة من اليأس الضّائب!

تشعر وكأن أبواب الدّنيّا قُفلت بوجهك، وتشعر وكأنّ العالم سينتهي وأنت صفر اليدين، تكره النّفس الذي تزفره، تكره النّظر إلى المرآة، تكره أن ترى أحدٌ من المارّة أو تسمع صوت أحدهم، نعم نعم هذا ما تمرّ به أنت وما أمرّ به أنا وما نمرّ به جميعنا دون استثناءٍ!

وإمّا تقلّب مزاجٍ لا تعرف ما تبريره، ولا يُطلب منك أن تعرف! فقط تقبّل، فالإنسان لا بدّ أن يعيش تقلبات مزاجيّة لا أستطع أن أصفها باللّطيفة دائماً، فقد تكون هي شرّيرةٌ و متوعّدة، و متوجسّة أيضاً!

وإمّا للقاءٍ عابرٍ، شخصٍ عابرٍ، كلمةٍ سُمعت، نظرةٍ أُزعجت، أملٍ سُرق، فرصةٍ ضاعت، خطّةٍ فشلت، خوفٍ سيطر، قلقٍ تمادى، رعبٍ كَبُرَ، موقفٍ أذى، رؤيةٍ أعادتك لماضٍ مريرٍ، ذكرياتٍ أدمتك، مجهولٍ تلاعبَ، والكثير الكثير ممّا يحصل في الواقع لا أقوى أنا على إحصائه كلّه، لكن لا بدّ له أن يحصل ولا بدّ لك أن تعيش ما تعيشه، لكن الآن دعني أوضّح لك ما هو أكثر أهميّةً من تقلّباتك المتّهمة دوماً بالسّيئة، ما هو الفرق بيننا إذاً؟!

ما هو الفرق بيني وبينك وبينها إن كنّا جميعنا نمرّ بهذه الحالات كلّها وربّما أكثر من مرّةٍ في اليوم الواحد؟!

الفرق يا صديقي هو كيفيّة التّعامل مع هذه التقلّبات، كيف تنظر لها، كيف تعيشها، كيف تجتازها، كيف تخرج منها، ماذا تسمّيها، وكيف تحكم عليها، وكيف تنظر لها إن وقفت خارجها، فهل أنت تراها أمراً عاد لا يشزّ عن قواعد تكوين البشر والحياة وأنّها ليست بحالةٍ دائمةٍ، بل مؤقتةٍ تُجتاز، ويُخرج منها بقوّةٍ وأملٍ، وتصبح بعدها دافعاً أكبر، ونوراً يشعشع، أو أنّك تراها نمط حياة، تقتلك وتقتل من حولك، تحرمك حياتك، تفقدك لذّة ما لذّة له، تمحو الأمل من قاموس حياتك، وتجعلك في دائرة ظلام لا خروج منها البتّة، أو أنّها تسيطر عليك بنسبةٍ لا بأس بها من اليأس، فتجعلك شخصاً سوداويّاً، حازماً أكثر من المُفترض، يرى الظّلام أكثر من النّور، يخاف أكثر ممّا يأمن، يكره أكثر ممّا يحبّ، يخسر أكثر ممّا يربح، وترجح كفّة الميزان ضدّه في كلّ ما هبّ ودبّ!

فأنت كيف تتصرّف ممّا ذكرت؟!

هل فهمت الآن يا عزيزي؟!

لا بدّ ولا بدّ ولا بدّ من عيش ذاك ما حدّثتك عنه، لكن إيّاك أن تجعله سبباً لقتلك وهو ما خُلق ليكون سبباً لإحيائك!

الباب العاشر:

لا بأس

لا بأس إن آخذت قسطاً من الرّاحة في سريرك ليومين أو ربّما ثلاثة، لا بأس وإن تركت سباقك يرتاح من اللّهث قليلاً، لا بأس إن أرخيت يديك من الطّرقات قليلاً، لا بأس وإن أطفأت دماغك ليومين، لا بأس إن أخرست الكلام المُتجوّل بداخلك، لا بأس إن بقيت في التّخت ليومين، تنام وتنام وتنام وتصحو وتجد الدّنيّا تسير دونك، لا بأس إن كنت مُتفرّجاً على السّيناريوا ليومين بدلاً من أن تكون المشاركاً، لا بأس إن دعيت العالم يسير من حولك وأنت نائم في سريرك، لا بأس ولا بأس إن كنت لا شيء!

يحتاجُ كلٌّ منّا إلى هذين اليومين أو الثّلاثة ما يقضيهم في السّرير بين أحضان النّوم، دون أي ضوءٍ أو إنارةٍ أو صوتٍ أو حتّى همسٍ خفيفٍ، نحتاجُ جميعنا إلى إجازةٍ من الحياة و

السّعي بها، لكن حتماً يجب أن تكون إجازةً قصيرةً، كون الحياة قصيرةً لا تحتمل إجازاتٍ طويلةً.

دعني أخبرك الآن بسرٍّ من أسرار الوجود ربّما أتعب تفكيرك كثيراً، لا تتجوّل في هذا العالم تبحث عن دليلٍ أنّك لا تنتمي له؛ لأنّك ستجده دائماً!

ولا تتجوّل في هذا العالم بحثاً عن أدلّةٍ أنّك لست كافياً؛ لأنّك ستجدها دائماً!

قيمتنا وانتماؤنا لا يتمّ التّفاوض عليهما مع الآخرين، لأنّنا نحملهم في قلوبنا، فأنا لا أتفاوض معك بشأن من أنا، فأنا أعرف من أنا، ربّما أتفاوض معك حول عقدٍ كثيرةٍ، مسائلٍ عديدةٍ، لكن حتماً لن أتفاوض معك بشأن هويّتي، لأنّني حينها ربّما سأكون مناسبةً لك، لكن على حساب خيانتي لذاتي، وهذه خيانة أنا لا أرتكبها بحقّ نفسي البتّة، لذلك إيّاك والتّفاوض معي بشأن شخصي كي أصبح مناسبة لك!

التّكيّف ليس انتماءً، لذلك لا بأس إن لم تتكيّف أو تنتمي، لا بأس!

لا بأس إن فاتتني مشاهداً مختلفةً من حياتي، فأنا من أشحتُ عنها بكامل إرادتي، لا بأس إن لم أخوض جلّ ألعاب الحياة، فأنا أرمي نردي في أيّ بقعةٍ أريدها، فزهري رابحٌ أينما وقع، ولا بأس إن قُلب الكون رأساً على عقبٍ، فأنا أبني كوناً آخراً وأنا أقول لا بأس!

لا بأس يا صديقي إن جرى التّيار ضدّك، فمن أخبرك أن السّير مع التّيار يُجدي معنا؟!

لا بأس إن خانتك ظروفك، أنسيت أنّ بعض الخيانات نعمة؟!

لا بأس إن صَعُب طريقك كثيراً، ألم تعلم أنّ ما يُهيّئ لك يستحقّ كلّ ذلك؟!

لا بأس وإن تكاثرت الهموم عليك فواللّه ما بعد العسر إلّا اليسر.

لا بأس وإن باتت المطبّات لا تغادر طريقك، فأنت حكيماً في قيادتك، أليس كذلك؟!

لا بأس إن أبكتك دنياك، فخالقها هنا كي يجبرك.

لا بأس إن ضاع حلمك، فقلبك قادرٌ على رسم حلمٍ آخرٍ.

لا بأس وإن نزفت روحك، فأنت تملك وحد دمٍّ كثيرةٍ، أليس هذا صحيحاً؟!

لا بأس إن غيهب الظّلام على أنوارك، فما بعد الغروب سوى الشّروق، الفجر، الفلَك.

لا بأس إن لم تكن رسّاماً مبدعاً في رسم طرق حياتك، لكن البأس كلّه إن لم تجيد تلوينها كيف تحبّ وتتمنّى!

تعلّم يا صاحِ أن تعزف على أوتار الحياة السّعيدة، تغنّي مع ألحان الأحلام وظلالها، ترقص مع إيقاعات الآمال وفجرها، تتمايل مع أنسام الحبّ وتضمّ حنانه، تكون بديهيّاً في تفكيرك، تجيد التّظاهر بالغباء وأنت الذّكاء كلّه، آه ما أجمله من تظاهرٍ!

الخاتمة:

يحزنُني أن أختم كتابي معك الآن، فأنا كنتُ أستشعر بجمال الرّحلة معك وأنا أكتب لك، فعسانا نكون تركنا أثرنا بك أيّها القارئ، أمّا بعد ماذا فهمت من قصر الرّماد؟!

قصر الرّماد، هو قصري، ما عمّرته من رماد جثّتي المُحترقة، رماد قلبي الملتهب، رماد روحي الممزقّة، رماد مشاعري المدفونة، رماد أحاسيسي المقتولة، ذاك القصر هو فكري القابع في قشرتي المخيّة، ما لا يقوى أحدٌ على هدّه أو زعزعته، فأنا امتلكتُ به حريّتي الفكريّة، منطقي الفريد، صوتي الجاهر، أفكاري الحالمة، وكلّ ما أملك يُوضع في كفّةٍ، وفكري يوضع في الكفّة الأخرى، وهل هناك أغنى من إنسانٍ يحلم؟!

قصر الرّماد يذكّرني، أنّ العمار يُبنى من حجارة الخذلان، من طين الألم، يقوى بركائز الدّموع، ويُسند بسقوف التّحديّات، وهذه هي معادلتي في الحياة من كان التّحدي هو حلّها المقبول والاستسلام والخسارة ضمن مجالها المرفوض، فأنا أقوى بالحزن، وأنضج بالمعاناة، وكلّما اشتدّت ظلمة أيّامي كلّما زاد شوقي لحياتي الورديّة، وكبر سعي لها، فالحمد للّه على نعمة الألم، تلك النّعمة العظيمة الّتي تُؤجر عليها لآخرتك، ويعوّض اللّه صبرك عليها دنيويّاً، فخلاصتها دوام الحمد في الضّراء قبل السّراء، دوام الثّقة باللّه، دوام الإيمان به، دوام الدّعاء له، دوام التّوكل عليه، دوام الأمان معه وله، وهل من ملجأ منه إلّا له؟!

هل أنت مستعدٌّ لتعمّر قصر الرّماد الخاصّ بك؟!

هل جاهزٌ أن تخرج تلك النّثرة من جناحك المكسور، وتستعدّ للتّحليق؟!

جاهزٌ أن تفهم الحياة من عينيّ الحياة؟!

جاهزٌ أن تحبّ الحياة كما تحبّك؟!

أتمنى أن أنجح في جعلك تجاوب بنعم، وأنا أقول لك قل نعم ولا تخف، فالكون لا يرحم الخائفون، ولا يسند الضّعفاء، ولا يحمي الضّحايا!

انتهى و الحمد الله

فَرَسُ أُمنيَاتِي

فرِسّ أَبحثُ بهِ عن كَلّ
ما يُشيهنِي،
وِإنّ صَهلُتِ الحَياةُ كَلُها
في وجهِي،
مهرَةُ أَنا، لاَ تُروّضنِي
سوى فرِسّ أَمنِياتِي السَّاكَنِةِ
أَيْسَرَ صدِرِي.

د. عائشة السيد